

# السفاحون والفتاة الشقراء

قصة بقلم محمد فكري

أنفأة أسمرت في مناقبة الصور كأن شيئاً لم يحدث ، كنت أنتظر - على الافل - أن لم نسحب لمدايعتي أن تقول شيئاً .. أن نملل .. لكنها لم تشعر حتى بوجودي .. فعدت أنظر الى الفيلم ..

القصة لا زالوا يجلسون منتفشين كالديكة يبدو عليهم أنهم مفتنون بكل التهم والجرائم ، وصور الحرب والقتلى والبنادق .. وفجأة تذكرت صديق عمري أحمد .. وعادت صورة الايام الرهيبة التي عشناها في بورسعيد نجثم على ذهني .. وأنرصاصة تخترق قلب أحمد فيسقط على الأرض مخرجاً في دمائه ..

واخلطت صور القصة وصور أقتلى والدما ، بالصور التي في ذهني .. واصبحت غامضة المعالم .. هل هؤلاء قتلى الفاشية ام قتلى العدوان على بورسعيد .. !! وفرضت الصور التي في ذهني نفسها فبدت كأنها تراقص أمام عيني على الشاشة .. المظلات البيضاء وهي نهبط من السماء .. والقنابل وهي تتساقط من حولنا .. واحمد وهو يطلق بندقيته ويصيب .. ويصيب .. ثم يصرخ ويسقط على الأرض .. وأنا أجري كالمجنون .. أطلق بندقيتي على المظلات الهابطة .. فتسقط على الأرض مثقبة ملطخة بالدماء ..

والقصة لا زالوا يجلسون منتفشين كالديكة ، كأنهم مندوبو الله على الأرض يوزعون عدالتهم المسمومة على البشر ، وأحنقني منظرهم .. وبدا لي كأن العالم قد انقلب رأساً على عقب .. أليسوا هم اليوم أولى بالانهايم .. هؤلاء من كانوا قضاة الامس .. وأي فضاة .. أليسوا .. أليسوا .. منى فرأت ذلك .. لا أذكر .. أليس الاستعمار هو الذي استخدم ربيبه النازية للقضاء على ثورات التحرر والاشتراكية في العالم !! يحاكمونهم اليوم لأنهم أرادوا مقاسمتهم الغنيمة .. لأنهم انقلبوا عليهم ..

أحنقني أن أراهم في موقف القضاة حتى ازاء السفاحين .. وتلفت حولي أستطلع الوجوه .. وجوه بيضاء .. وصفراء .. وسمراء ، أردت أن أعرف هل هذه الوجوه مقتنعة بوقوفهم موقف العدالة .. ولكن جميع الوجوه كانت مشغولة عني بتابعة الفيلم .. وتور جسدي كله وارتمشت ، وغلت في رأسي دماء حارة كالبركان ، وتملكني رعبية متيرة في أن أنهض وأصرخ بين الناس .. لا تصدقوهم .. أنهم السفاحون الكبار .. انظروا ماذا يفعلون في فيتنام .. انظروا كيف يعندون ويتآمرون في كل بلاد الأرض .. انظروا ..

لكنني لم أنهض .. كانت فكرة محمومة فد طافت بذهني ، وسمرت في مكاني خشية أن تخونني أعصابي فأركب حماقه ، ومع ذلك لم اسنطع أن أنمالك نفسي .. كنت أريد أن يعرف الناس الحقيقة ، وغابت عن ذهني الفتاة الشقراء ، والقاعة والناس .. وكل شيء ، والصور تتابع أمام عيني .. مدن تخربها القنابل .. معارك وحشية .. بقايا أجساد بشرية ..

وسمعت همهمة عن يساري ، فملت برأسي نحو المرأة الاسيوية .. كان عن يسارها فتاة في حوالي الثالثة عشرة ، سألها الفتاة سؤالاً ، فمالت نحوها المرأة وهمست :

- لا أدري .. لا أستطيع متابعة الفيلم باللغة الروسية .. ولكن يبدو أنهم ضحايا القنبلة الذرية على هيروشيما ..

وابتمت في نفسي ، ها هي امرأة تذكر قنبلة هيروشيما ..

رغم القصة ، وهبطت حدة الحلق الذي في نفسي قليلاً .. والقصة لا زالوا منتفشين كالديكة ، والادعاء يحاور ويداور ،

اجزت فصر الكرمين وأنا أجنح بنفسي لاحتمى بالسور .. للمت حولي أطراف معطفي وقلصت في داخله .. كانت درجة الحرارة خمسا وثلاثين تحت الصفر ، والصباب يجثم على الأرض فاتما رهيباً ، كأنه غاز غاشم أباح لنفسه أن يحتل الأرض ويفصلها عن السماء .. وندف الجليد تظف الأشجار ونكسو الطريق بالبياض .. ورذاذ الصقيع ينثر وجهي ويسل الى رقبتي . ثبتت وشاحي حول عنقسي ، وأحطت بالشبكة أذني ووجنتي ، فلم يعد ظاهراً سوى عيني وأنفي ، ورحست أظ الجليد في ظريقي الى سينما (( أودارنيك )) .

أحسنت بالدفع ، في فاعة السينما الفسيحة ، وأعادت الاضواء الباهرة الي احساسني بهجة الحياة ، فتماكنت انفاصي ونلمست مكاني بين الصفوف .. كانت عن يميني فتاة شقراء جميلة .. فازدوت ابهاجا ، ومينت نفسي بصداقة جديدة مع هذه الشقراء ، وما كدت انخذ مكاني حتى ملت نحوها في ابتسامه مهذبة ، وسألت :

- عفوا .. أي فيلم سيمثل الآن ؟  
كانت الفتاة تجلس صامتة كأنها مستغرقة في تفكير عميق ..  
التفتت الي في هدوء ، وقالت بوجه متجهج :  
- محاكمات نورمبرج .

وحاولت أن أخرجها عن صمتها فعدت أسأل :  
- هل يبدأ الفيلم بعد كثير من الوقت ؟  
ظلت الفتاة مستغرقة لحظة كأنها لا تريد ان تجيب ، تمتعت :  
- لا أدري ..

وعادت الى صمتها مرة أخرى .  
ولم نكد تتم قولها حتى أخذت القاعة في الاظلام ، وحينئذ انبجعت بصرها نحو الشاشة ، ولم تعد تحس بشيء .

لكنني انشغلت بالفتاة عن الفيلم ، لم هذا الوجوم الذي يلف وجهها ؟ ولم هذا الرد الجاف المقتضب !! لقد كنت مهذباً معها للغاية .. لم أفعل ما يضايقها .. سألته أسئلة عادية يمكن أن توجه من انسان لاي انسان .. ورغم ذلك يبدو لي ان الفتاة وديعة .. رقيقة ..

حينما توجهت بناظري الى الشاشة .. كانت ثمة محاكمة .. وثمة فضاة يحاكمون منهمين ، وبدأت خيوط الفيلم تتجمع في ذهني .. القصة من الحلفاء .. والمتهمون أعوان هتلر .. يجلسون صفا واحداً يبدو على وجوههم الوجوم ويخيم عليهم انصمت الرهيب .. والادعاء يحاور ويداور .. يتهم السفاحين ويوزع عليهم الجرائم التي ارتكبوها أثناء الحرب .. والكاميرا تعود مع الزمن .. فتصور الجرائم والفظائع ..

وسمعت همهمة صوت نسائي عن يساري ، والتفتت بحركة لا ارادية لارى امرأة ، واستنطعت ان أميز ملامحها وقد اعتادت عيني الرؤية في الظلام .. أنها تحمل ملامح أهل آسيا .. لكن لم اسنطع أن أعرف من أي بلد على وجه التحديد .. وكان شعرها الرمادي تخالطه خصلات بيضاء .. ووجهها يتم عن أنها تخطت سن الشباب ، فوليت عنها وعدت أنظر الى الفتاة الشقراء .. جميلة .. رقيقة .. لم تعد الخامسة والعشرين ، يندلى شعرها الاشقر على جانب وجنتها ويحجب جزءاً من أذنها ، فيبدو كإطار ذهبي لوجهها الجميل ، لكنها مشغولة عني بمناقبة الصور ، وحاولت أن أجدب انتباهها ، فربتت ساقيها بركبتي .. لكنها لم تشعر بشيء .. وعدت أربت ساقيها مرة أخرى .. لكن

# حوار في مدينة قبة من الحجر

أما ما مرت عليك الليلة الأولى  
تمر هذي الليلة الالف ؟

أبقى الحرف مشلولاً

ينخره المنفى ؟

أبقى الغصن المقطوع مقطوعاً

أوراقه تستمطر الجوعاً

أوراقه تصفر ...

أوراقه تحت السماوات الغريبات تعري غصنا كالجزر  
مجهولاً ؟

\*\*\*

هل نعرف النجم على حزمة اوراق ؟  
هل نعرف البحر بلا زرقة اعماق ؟  
ومن ترى يمنح هذا المغربي : الدهشة الاولى  
والخجل البصري ، والبسمة ؟  
والنخل ، والعتمة ...

والبيرة السوداء ، والساحات ، والماء الذي ينهل مجهولاً

\*\*\*

أكلما لوئن هذا المطر القرميد بالماء .  
أكلما أبصرت عصفوراً على حائط  
أكلما ارعدت الادواء اعضائي  
واجهنني النخل ... نحيلاً ، غامضاً ، مستوحداً ، نائي  
قاماته تمنحني لحظة ايماء  
وسعفه يهمس في العتمة اسمائي

\*\*\*

تخجل ان تنسى ، ولا تقدر ان تضحك  
وتعصب العينين حتى لا ترى جرحك  
تريد ان تبقى قويا دون ان تقوى  
وفي ظلام الصوت تنسى ان ترى صباحك  
انك لا تهوى ، ولا تبصر من يهوى  
كانك الحدأة والطائر  
والبيت والمنفى  
كانك الاول والآخر

سعدي يوسف

الجزائر

والتمهون يجلسون صفا واحداً يبدو على وجوههم الوجوم .. ويخيم  
عليهم الصمت الرهيب .. وانتهت المحاكمة .. وصدرت احكام .. سجن  
.. اعدام .. ونال السفاحون جزاءهم .. وخفتت الصور على الشاشة  
.. النهاية .. وعادت الاضواء ، وما زالت في نفسي بقية من حق ..  
هل يدرك الناس حقيقة القضاة .. !! والتفت بحركة لا ارادية الى  
الفتاة الشقراء متسائلاً :

– هل أعجبك الفيلم ؟

ردت دون تفكير :

– لا أدري أيخدعون أنفسهم .. أم يخدعون الناس ؟

وأعجبت بما في قولها من فهم وذكاء .. فقلت :

– أوافقك الرأي .

وأراحني قول الفتاة ، وأسعدني خروجها عن صمتها ، فسألت :

– هل أنت روسية ؟

أجابت : – نعم .

قلت :

– أنني عربي . وأدرس الادب في جامعة موسكو .

فابتسمت ، وقالت :

– أنا أدرس النحت والتصوير .

فتماديت في الحديث قائلاً :

– كم هو جميل أن يتعرف المرء بفنانة جميلة مثلك ..

تجهمت الفتاة فجأة ، وقالت في ابتسامة مصطنعة :

– شكراً ..

وخشيت أن تكون قد تذكرت مداعبتي اللفظة ، حينما ربت ساقها

بركبتي ، فاستأوت ، وآثرت أن أبتعد عن الموضوع ، فسألت :

– ألم تزوري بلاداً خارج روسيا ؟

صمتت الفتاة لحظة ، ثم تسلل من بين شفثيها صوت مبحوح :

– كنت أعيش مع والدي في كوريا قبل الاعتداء الاميركي .

– لعل ذلك منذ وقت بعيد !!

فهزت الفتاة رأسها في آسى ، وهمست في ابتسامة لسم أدر

معناها :

– كنت طفلة حينذاك .. ولكنني عرفت كثيراً من المشوهين ..

مشوهي الحرب .

وصمتت فجأة ، كأنها ندمت على ما قالت .

وكان الناس قد نهضوا وافسحوا امامنا الطريق ، فنهضت بدورها

ونهضت ، وشجعتني ابتسامتها الاخيرة على التماذي في التعرف عليها ،

فسألت :

– هل أستطيع أن أراك مرة أخرى ؟

عاودها التجهم ، وردت بفظافة :

– لا .. لا تستطيع ..

وفوجئت بالرد ، وآلمتني لهجتها ، خاصة وقد طلبت رؤيتها بشكل

ودي ، وبصيفة تستطيع معها أن تقبل ، أو ترفض بطريقة مهذبة ، ولم

أجد مرراً لفظاتها ، فتلعثمت دون أن أدري ما أقول :

– لماذا .. !!

تعثرت الكلمات على شفثيها :

– لا .. حينما .. لا أريد أن ..

ولم تجد كلمة تتم بها حديثها ، فاغرورقت عينها بالدموع ..

وتركتني وانصرفت .. ولاحظت عرجاً في مشيتها ، وأنعمت النظر في

ساقها .. كانت ساقاً صناعية ، وهممت أن ألحق بها أو أقول شيئاً ..

لكنني لم أستطع ..

وتسمرت في مكاني ، وأخذت أرنو اليها وهي تبتعد قليلاً .. قليلاً

.. ولم أعد الى وعيي الا بعد أن غابت عن ناظري .

محمد فكري

موسكو